

بيئة الشام وشعر المديح

مع انتقال الخلافة من الحجاز إلى الشام بعد قيام الدولة الأموية، ومع اتخاذ دمشق حاضرة لها بعد المدينة المنورة، أصبحت الشام هي البيئة الأساسية في الدولة الجديدة من الناحية السياسية، وأصبح القصر الأموي هدفاً للشعراء الذين يريدون أن يتخذوا من المديح وسيلة للعيش ومورداً للرزق، وفرصة للكسب والغنى وجمع المال، وأيضاً للشهرة والمجد الأدبي الذي تُضفيه الصلة بالقصر على من يتصل به من الشعراء الطامحين في أن تلمع أسماؤهم بين أرجائه.

ومن هنا كان ظهور المدح وازدهاره في هذه البيئة ظاهرة طبيعية ارتبطت بانتقال الخلافة إليها، ووجود القصر فيها. وساعد على ذلك أن الخلفاء الأمويين كانوا يجزلون العطاء للشعراء لأنهم - من ناحية - عرب يفهمون الشعر ويتذوقونه ويقدرونه، وبطربون له، ويعرفون مدى سلطانه وتأثيره في النفوس، ولأنهم - من ناحية أخرى - يريدون دعاية لهم ولدولتهم التي قامت بعد صراع سياسي وحربي دام فرق الأمة الإسلامية شيعاً وأحزاباً متخاصمة متناحرة تؤمن كلها بحقها في الخلافة. وهم يعرفون أنها دعاية خير من يقوم بها شعراء المدح الذين اتخذوا المدح حرفة ومذهباً وتهافت الشعراء على القصر، ولمع من بينهم الفحول الثلاثة: الأخطل وجريز والفرزدق، وبخاصة الأخطل الذي كان شاعر القصر الأموي الأول في عصر عبد الملك بن مروان.

وعلى أيدي هؤلاء الثلاثة تطورت قصيدة المدح من صورتها التي كانت عليها في العصر الجاهلي إلى صورة جديدة بما أدخله هؤلاء الشعراء على نسيجها الفني من خيوط إسلامية من ناحية، وخيوط سياسية من ناحية أخرى، كانت تتلاحم تلاحماً قوياً مع خيوطها الجاهلية القديمة لتقدم لنا قصيدة المدح الأموية الجديدة، التي تعد - في حقيقة أمرها - قصيدة من الشعر السياسي الذي نهض نهضة واسعة في هذا العصر، تعبر عن «نظرية الحزب الحاكم السياسية». وتدافع عنها، وتدعو إليها في مواجهة شعراء المعارضة الذين اتخذوا من شعرهم وسائل للتعبير عن نظرياتهم السياسية وهي نظريات كانت كلها تدور حول قضية محورية أساسية هي الخلافة.

وأول ما يلفت النظر في قصيدة المدح الأموية تلك الملاءمة البارعة بين

العناصر الموروثة التي كان المدح الجاهلي يعتمد عليها والعناصر الجديدة التي نفذ إليها الشعراء من خلال ظروفهم الجديدة.

لقد وجد الشعراء بين أيديهم رصيذاً ضخماً من التراث الذي خلفه لهم أسلافهم من العصر الجاهلي فراحوا ينفقون منه في كثير من الإسراف، مستمدين من كنوزه الثرية كثيراً من معانيهم وأساليبهم وصورهم الفنية، ولم يستطيعوا أن ينفصلوا عن هذا التراث لأنه كان يمثل أمامهم أروع صورة وصل إليها شعرهم العربي القديم، وأرفع نموذج لهذا الفن الذي استقرت تقاليده واكتملت مقوماته على أيدي القمم الشامخة من شعراء ذلك العصر، وأصبحت القصيدة الجاهلية هي المثل الأعلى الذي ينظر إليه الشعراء بكل تقديس وإعجاب.

على أساس هذه الملاءمة بين القديم والجديد ظل المدح بالكرم والشجاعة والحلم والمروءة ونحو ذلك من المعاني القديمة.

ولكن إلى جانب هذه المعاني دخلت النسيج الفني للقصيدة خيوطٌ إسلامية مستحدثة جددت من الصورة التقليدية للقصيدة، وحولتها إلى صورة جديدة. فأصبح الشاعر يمدح الخليفة: بأنه إمام المسلمين، وأن الله اختاره لخلافتهم، وأنه نور يضيء البلاد، ويكشف عنها ظلمات الجور والضلال، وأنه يقيم في الدولة الإسلامية عمود الدين، ويقضي بين الناس بالعدل، وأنه يتصف بالصفات التي يدعو الإسلام إليها من تقوى وورع وتمسك بكتاب الله وسنة رسوله، ونحو ذلك من المثل والقيم الإسلامية التي أرساها الدين في نفوس الناس.

يقول الأخطل الذي لم ينج من هذا التأثير الإسلامي على الرغم من نصرانيته.
(تأييد بني أمية بالصور الدينية):

أظفره الله فليهنئ له الظفر	إلى إمام تغاديننا فواضله
خليفة الله يستسقى به المطر	الخائض الغمر والميمون طائره
ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر	في نبعة من قريش يعصبون بها
أهل الرباء وأهل الفخر إن فخروا	تعلو الهضاب وحلّوا في أرومتها
إذا ألمّت بهم مكروهة صبروا	حُشدٌ على الحق عيّافو الخنا أنفٌ
لا جدّ إلا صغيرٌ بعدُ محتقر	أعطاهم الله جدّاً ينصرون به

شُمُسُ العداوة حتَّى يستقَادَ لهم
وفيها أيضاً يقول:

وما الفرات إذا جاشت غواربُه
وزعزعتَه رياح الصيف واضطربتْ
مسحفر من جبال الروم يستزُه
يوماً بأجود منه حين تسأله
وكان النابغة قد قال في مديحه للنعمان:

وما الفرات إذا هبَّ الرياح له
يمدُّه كل واد مُثْرَع لجبٍ
يظل من خوفه الملاح معتصماً
يوماً بأجود منه سيب نافلةٍ
ويقول الأخطل:

وقد جعل الله الخلافة فيكم
ولكن رآه الله موضع حقها
ويقول:

أحيا الإله لنا الإمام فإنه
نور أضاء لنا البلاد وقد دجتْ

وأعظم الناس أحلاماً إذا قدرُوا

في حافتيه وفي أوساطه العُشْرُ
فوق الجأجئ من آذيه عُذْرُ
منها أكافيف فيها دونه زور
ولا بأجهر منه حين يُجْتَهَرُ

تمري أواذيه العبرين بالزبد
فيه ركام من الينبوت والخضد
بالخيزرانة بعد الأين والنجد
ولا يحول عطاء اليوم دون غدٍ

بأبيض لا عاري الخوان ولا جذب
على رَغَمِ أعداءٍ وصدادةٍ كذب

خير البرية للذنوب غفور
ظَلُمُ تكادبها الهداة تجور

ويمدح جرير عبد الملك بهذه المعاني الدينية، فلولا الخليفة لتعطلت أحكام
الشريعة ولما أقيمت الصلوات فالإسلام مستمر بوجوده وهو أمين الله على ولاية
الأمر، والمبارك الذي هدى الله أتباعه إلى الدين الصحيح حين هداهم إلى الالتفاف
حوله ثم يقول إن الله فضل آل مروان على أعدائهم فكل ما يعني الشاعر أن يَسُرَّ
الخليفة ويُهَزَّ أريحيته، فيطرب لقوله ويكثر له في العطاء:

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه
ما قام للناس أحكام ولا جمعُ

أنت الأمين أمين الله لا سرف
أنت المبارك يهدي الله شيعته
يا آل مروان إن الله فضلكم
فضلاً عظيماً على مَنْ دينُه البدعُ
فيما وليت ولا هيابة ورع
إذا تفرقت الأهواء والشيعُ

وأُسرف الفرزدق في المبالغة وهو يمدح يزيد بن عبد الملك في قوله:

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائم
لكنك الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام
ورثتم خليل الله كلَّ خزانةٍ وكلَّ كتاب بالنبوة قائم

جعل الفرزدق من الخليفة يزيد خليل الله وأنه أهل للنبوة ولو لم يكن المصطفى آخر الأنبياء، لكان يزيد نبياً، فقد ورث علم الأنبياء وحكمتهم. وهو الذي كان منصرفاً للترف واللذة والغناء.

وليست المعاني «الدينية» هي كل شيء في قصيدة المدح الأموية، فقد دخلت عناصرُ سياسية جديدة تتصل بسياسة الخلفاء والأمراء والولاة وما يؤدونه للدولة من أعمال من أجل استتباب الأمن ونشر الطمأنينة بين الناس والضرب على أيدي العصاة والمتمردين، ونحو ذلك مما تقوم عليه سياسة الدولة الداخلية، وهي معان جديدة انتشرت انتشاراً واسعاً في مدائح هؤلاء الشعراء، على نحو ما قال الفرزدق في مدح الحجاج:

ولم أر كالحجاج عوناً على التقى ولا طالباً يوماً طريدة تابل
بسيف به لله تضرب من عصى على قَصَر الأعناق فوق الكواهل
شفيت من الداء العراق فلم تدع به ريبة بعد اصطفاق الزلازل
وكنا بأرض يا بن يوسف لم يكن يبالي بها ما يرتشى كل عامل
وما تبتغى الحاجات عندك بالرشا ولا تُقْنَضِي إلا بما في الرسائل
ومدح جرير الحجاج بقوله:

من سدّ مَطْلَع النفاق عليكم أم من يصول كصوله الحجاج؟
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضي البصرة واضح المنهاج
منع الرُّشا وأراكم سبل الهدى واللصّ نكَّله عن الإدلاج
ولقد كسرت سنان كلِّ منافق ولقد منعت حقائب الحجاج

إنهما يمدحان الحجاج بأنه وال حازم قادر على ضبط الأمور ونشر الأمن والعدالة. وضع حداً للفوضى والفساد والرشوة في العراق، وقضى على مظاهر اختلال الإدارة، وأمن أفراد الشعب على حياتهم وأموالهم.

ودخلت قصيدة المدح عناصرٌ أخرى مذهبية تدور حول النظرية السياسية التي يدعو لها بنو أمية ويروجون لمبادئها، والتي تقوم على أنهم أحق الناس بالخلافة وأن الله اختارهم لحكم جماعة المسلمين ولولا ذلك ما نصرهم على خصومهم السياسيين. وتتردد هذه العناصر في مدائح جرير فيعتمد في شعره على ترديد فكرتين: القدر والمهدي، فالخلافة الأموية قَدْرٌ قَدَّرَهُ الله على الأمة الإسلامية وقضاء محتوم قضاه الله عليها، فلا مَرَدَ له، وعلى الأمة أن تطيعهم وترضى بحكمهم، لأنهم خلفاء الله في أرضه وخلفاء رسوله في أمته، وحكمهم صادر عن مشيئة إلهية لا يملك البشر تغييرها. وهي فكرة رُوِّجت لها السلطة بين الناس حتى ينصرفوا عن التفكير في معارضتهم والخروج عليهم:

يقول جرير لعبد الملك:

الله طوقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل
فكل شيء بقضاء وقدر ولا سبيل إلى التغيير والتبديل.

ويقول عن ابنه الوليد:

إن الوليد هو الإمام المصطفى بالنصر هُزَّ لواؤه والمغنم
ذو العرش قَدَّرَ أن تكون خليفة مُلِّكَتَ فاعلُ على المنابر واسلم
والخليفة الأموي - من جهة أخرى - هو المهدي - الذي كثيراً ما وصف به الشيعة
أئمتهم. يقول في سليمان:

سليمان المبارك قد علمتم هو المهديُّ قد وَضَحَ السبيل

ويقول في عمر بن عبد العزيز:

أنت المبارك والمهديُّ سيرته تعصي الهوى وتقومُ الليلَ بالسور
نال الخلافة إذا كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

ويقول في هشام وهو آخر خليفة اتصل به جرير:

إلى المهدي نفرع إن فرعنا ونستسقي بغرته الغماما

وحبل الله تعصمكم قواه فلا نخشى لعروته انقساما

على هذه الصورة كان جرير يمدح الأمويين فهو دائماً يكرر أن الله اصطفاهم لخلقه وأنهم يسيرون على هَدْيِ الشريعة الإسلامية في حكمهم للأمة وأنهم الأئمة

المهديون الذين ينبغي على المسلمين طاعتهم، وقد غالى الشعراء وأسرفوا في توكيد هذه الأفكار.

فإذا السلطة الأموية تحمي جلدها بهذه الدروع القوية الواقية من الصور الدينية فكل ما تفعله بإذن الله وأمره.

شعراء المدح وصورة الرعية

رغم هذا الارتباط الشديد بين قصيدة المدح والسلطة الأموية، لم تكن الهوة كبيرة بينها وبين الطبقات الشعبية، حين راح هؤلاء الشعراء يصورون أحوال الرعية، ويرتقون بمدحهم ليكون احتجاجاً على السلطة وشهادة على العصر.

ويعد الفرزدق زعيم هذا الاتجاه إلى تصوير بؤس الرعية وظلم السلطة الرسمية. فهو يصور الفقر المرّ الذي خنق الناس فكادوا يلفظون أنفاسهم من الجوع إنهم مهزولون لا يشبع الطائر من لحم أحدهم لو مات، تغشاهم الذئاب من الشدة، فكلهم ساهر يذود عن عياله، بل هم همّوا بذبح الكلاب والحمير، يقول:

فقلت لهم إن يبلغ الله ناقتي	وإياي أبني بالذي أنا خابره
بحيث رأيت الذئب كل عشية	يروح على مهزولكم ويباكره
ليجتز منكم إن رأى بارزاً له	من الجيف اللائي عليكم حظائره
أغث مضراً إن السنين تتابعت	عليها بحرٌ يكسر العظم جازره

.....

وهمت بتذبيح الكلاب من الذي	بها أسدٌ إذ أمسك الغيث ماطره
وقالت بنو ذبيان إن حمارنا	طعامٌ حياً جوفانه وحوافره

ويصور الفرزدق ظلم الرعية وقد اجتمع عليها الفقر والجذب وظلم السلطة فيبدع في التصوير وينحرف بقصيدة المدح لتكون شهادة على العصر الذي يزيف صورته الحكام وأعوانهم.

إن الفرزدق - في بعض مدائحه - يمثل المعارضة السياسية التي لا تجد سبيلاً إلى التعبير عن آرائها إلا من داخل السلطة كما في رأيته التي قالها في مدح سليمان:

ويجمرّون بغير أعطية	في البرّ من بعثوا وفي البحر
---------------------	-----------------------------

حتى غبطنا كلّ محتمل
وتمنّت الأحياء أنهم
يُمشى بأعظمه إلى القبر
تحت التراب وجيء بالحشر

ومدح الراعي النميري الخليفة عبد الملك فإذا مديحه تصوير واسع للرعية فيما
تعانيه من البؤس والاضطهاد، وتصوير حي دقيق لتصرفات ممثلي الخلافة من
العمال، وشكوى عنيفة مرّة من هذا الظلم الذي يلحق بالناس عامة، فهو ينطلق من
أن الخليفة حريص على الدين وتعاليمه، فيبدأ مدحه بتوجيه رسالة إليه مثقلة
بالشكوى، الشكوى من ضلال قوم والشكوى من بكاء قوم آخرين:

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً
تشكو إليك مضلةً وعويلاً

ثم يمضي في تصوير همومه ويعرض قضيته عرضاً قوياً:

أخليفة الرحمن إنّنا معشرٌ
حنفاء نسجد بكرةً وأصيلاً

عربٌ نرى الله في أموالنا
حقّ الزكاة منزلاً تنزيلاً

إن السعاة عصوك يومَ أمرتهم
وأتوا دواهي لو علمت وغولا

أخذوا العريفَ فقطّعوا حيزومه
بالأصبحية قائماً مغلولاً

فإذا فرغ من رسم الصورة العامة، راح يصور عشيرته وقد أخذها هؤلاء السعاة
بظلمهم لا يرعون لها حرمة ولا ديناً فيقول:

أخليفة الرحمن إن عشيرتي
أمس سوامهم عزين فلولا

قوم على الإسلام لمّا يتركوا
ماعونهم ويضيّعوا التهليلاً

ونحن لا نرتاب في أن الشاعر كان يحمل الخلافة نفسها أوزار هذا الظلم، ولا نرتاب
في أن الخليفة نفسه قد فهم القصيدة على هذا النحو، وقد روى الرواة شيئاً من هذا
القبيل، فذكروا أن القصيدة لم تقع موقعاً حسناً من نفس عبد الملك، وأنه قال للراعي
حين وفد عليه بعد زمن ينشده قصيدة أخرى قال له «أنت العامُ أعقل منك عام
أول».

وما أكثر ما صور جرير بؤسه وبؤس أسرته ليستجدي من الخليفة، ولكنه
كان يرفع رأسه أحياناً ويراقب أحوال الناس ويصغي إلى مواجعهم، ويرفع شكواه مما
سمع ورأى إلى الخليفة علّه يعين. وقد ظل هذا الشاعر زمناً يمدح الحجاج ويذيع
أخبار بطشه وظلمه وجبروته بعد أن يزينها في أعين الناس، ويلقي عليها ظلاً دينياً

فنتقلب إلى جهاد في سبيل الله وصدع بأمره وتنفيذ لمشيئته!! حتى إذا دالت دولة
الحجاج، انقلب جرير يصور مظالم هذا الوالي الذي اكتوى العراق بناره وقوته
الغاشمة في خلافة عبد الملك وابنه الوليد.

ألا هل للخليفة في نزار	فقد أمسوا وأكثرهم كُلول
وتدعوك الأرامل واليتامى	ومن أمسى وليس به حويل
وتشكو الماشيات إليك جهداً	ولا صعب لهن ولا ذلول
ويدعوك المكلف بعد جهد	وعانٍ قد أضرَّ به الكبُول
وما زالت معلقةً بثدي	بذي الديماس أو رجل قتيل

هذا هو الحجاج الذي قال فيه جرير أجمل المديح، وهذه صورة الناس تحت طغيان
هذا الحاكم الذي كان جرير يقرنه بالأنبياء!!..